

الرسالة

مجلة أسبوعية للادب والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

٨٠ في مصر والسودان

١٥٠ في سائر الممالك الأخرى

نمن المدد ٢٠ ملياً

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

أحمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ - عابدين - القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

المسدد ٦٠٩ « القاهرة في يوم الإثنين ٢٠ ربيع الأول سنة ١٣٦٤ - الموافق ٥ مارس سنة ١٩٤٥ » السنة الثالثة عشرة

المدارس الأدبية

للأستاذ عباس محمود العقاد

ومن هؤلاء كاتب في صحيفة سورية تناول ما كتبت « الرسالة »
عن بعض المدارس الأدبية فقال كما قالت تلك البنية الساذجة :
عجبا ! ان هؤلاء إلا أناساً كسائر الناس ، فكيف يكونون أصحاب
مدارس في الكتابة أو الشعر كأولئك الذين نسمع عنهم من
وراء البحار ؟

وأظهر شيء تدل عليه تلك الدعشة أن « البنية الريفية »
التي كتبت في تلك الصحيفة السورية لا تعرف مدرسة واحدة من
مدارس الأدب في الغرب ولا في اللغة العربية ، وإنما تعرف تلك
المدارس على الوهم الذي يخيله إليها السماع ولا يتمثل لها لحظة في
صورة الفهم الصحيح .

ولو لم تكن تلك « البنية الريفية » كذلك لأدركت أن
الأدب الغربي — منذ أروسة أجيال على الأقل — لم تنشأ فيه
مدرسة واحدة صنعت في أدب قومها بعض الذي صنعه أديباء
العربية في الجيل الحاضر والجيل الذي سبقه ، لأن الآداب الأوربية
تجربى منذ ألف سنة في طريق واحدة يتقدم فيها السالكون خطوة
بعد خطوة ومرحلة في إثر مرحلة ، ولا ينتقلون فيها إذا انتقلوا
فترة بعد فترة إلا من مقدمة محضرة إلا نتيجة منتظرة ، تحشياً مع
الحركة الطردة . عصر اليونان إلى عصر النهضة التي جددت
بعض مدارس اليونان ، إلى عصر الإصلاح والثورة بلا انقطاع
ولا انحراف ، إلا في أيام الركود والجود .

من الحكايات الإنجليزية المروية أن بنتاً من بنات الفلاحين
وصلت إلى العاصمة فرأت جنوداً مصطفة وزحاما من الناس على
جانبى الطريق وشرطا يذهبون وبحيثون وخيلا تمدو بفرسانها
كوكبة بعد كوكبة ، فحجبت لهذه الحركة التي لم تمهد لها في قريتها
وسألت ما الخبر ؟ فقيل لها إنه الملك يعود إلى قصره من هذه
الطريق . فوقفت تنظر مع الناظرين حتى عبر بها الملك في مركبته
فنظرت إليه وهي لا تصدق ما تراه ، وصاحت بمن حولها : عجبا !
انه إنسان مثلنا ، فلماذا يجتمع الناس لينظروا إليه .

هذه البنت الريفية توجد في كل بلد وفي كل زمن ، لأن الدنيا
لن تخلو يوماً من أولئك الذين ينلو بهم وهم السماع فلا يعرفون
الواقع حين يرونه ، ومحسبون أن الأمور التي يتحدث بها الناس
ينبغي أن تبدو للانظار والاسماع على غير ما تألف وتمتاد .

وليس هذا بمجيب في أخلاق الجهلاء ، ولكنه عجيب
ولاشك حين يتصف به أناس يحكمون في الأدب والفكر وقيمون
الحدود بين الكتاب والشرء ويزعمون أنهم يعرفون وعلون
المعرفة على الذين لا يعرفون !

وندع المنظوم والمنثور ونظر إلى الشعراء والكتاب أنفسهم فإذا هم قد كانوا في عرف العلية والسفلة متساوين أو ندما يشنون المجالس للسليمة والترفيه ، ولا تعرف لهم رسالة مرعية في عالم الفكر أو في عالم الروح .

كل أولئك قد تميز في جيلين ، أو تميز مظلمة في جيل واحد ، ثم لا يقال عن الذين غيروهم إهم جاءوا بـ مدرسة من مدارس الأدب أو بدلوا حالاً بعد حال ، ولا يزال كثيراً عليهم أن يشبهوا بأولئك الأدباء الأوربيين الذين نسب إليهم المدارس لأنهم كانوا يقيمون عند بحيرات الجبال ولا يقيمون في الحواضر والمواضع ، أو كانوا يفصلون في مسائل الجنس والغرام ولا يحملون ، أو كانوا من أهل التصريح في العبارة ولم يكونوا من أهل الكناية والايحاء . جاء أولئك الأدباء الذين تستكثر « بنيات الريف » أن نسب المدارس إليهم فاستطاعوا في مدى قصير أن يغيروا النظرة إلى الأدب وأن يغيروا النظرة إلى الأدباء .

فليس أدباء العرب اليوم مسترفدين ولا ندما أسما ، ولكمهم أبحاث صناعة مكرمة يضارعون في الكرامة أولئك الذين كانوا يحسبونهم ويتزلفون إليهم ويقفون على أبوابهم في انتظار جوائزهم قبل جيلين أو ثلاثة أجيال ، وإذا استطاع في القرب تعظيم شأن الأدباء على هذا النحو فليس في ذلك من عجب وليس فيه كبير فضل للأديب ولا لأحد من أفراد الناس ، لأن استثناء الكاتب أو الشاعر بأعماله بين أمم عمت منها الأمية وتعودت مطالعها أن تخرج من الكتاب الواحد عشرات الألوف من كل طبعة أمر غير عسير . أما المعجزة حقاً فهي تعظيم شأن الأدباء في بلاد لا يزيد قراؤها على عشرين ألفاً ، ولا تملك مطالعها أن تعمد نشر الكتب بين القراء القليلين وهم موزعون هنا وهناك بين شتى الأقطار .

وهذه المعجزة صنعها أولئك الأدباء الذين يكثر عليهم أن نسب المدارس إليهم !! ولم يصنعها الأدباء الذين تسمع بهم « بنيات الريف » ولا يعقلون عنهم شيئاً وراء السماع .

صنعوا هذا وصنعوا معه أنهم غيروا النظرة إلى الأدب كما أسلفنا فانتقلوا به من عصر إلى عصر ومن موضوع إلى موضوع ومن مقياس إلى مقياس ، ولم يكن هذا الأمر ليتيسر في البلاد الشرقية كما تيسر نشأة المدارس في البلاد الأوربية ، لأن تحرير المقاييس

قصارى ما تنسجه المدرسة الأدبية بين التريين أنها تريد في المجاز أو تريد في التعبير عن الواقع ، وأنها تميل إلى الأسلوب المأثور أو تدخل عليه بعض التصرف والتعديل ، وأنها تجمع إليها رهطاً من الزملاء بينهم تشابه في المزاج وتقارب في الموضوعات أو تقارب في موضع الإقامة وفي المناظر التي يلتفتون إليها ويعنون بوصفها ، ثم يرجع الناقد إلى أدب قومهم قبل ظهورهم وبعد ذهابهم فإذا هو متقارب متتابع لا وثبة فيه ولا جنوح عن الحادة التي مهدت من قديم الزمان .

ولا يستطيع أحد من أولئك السامعين أن يترجم شعر محسن سنة متوالية إلا بدله أنه كالحلقة بعد الحلقة في سلسلة واحدة قلما تباعد في أوساطها وإن تباعدت في أطرافها ، وأنه على الإجمال نوع واحد من الأدب في النظم .

أما أدباء العربية في الجيل الحاضر والجيل الذي سبقه فقد صنعوا في تغيير مقاييس الأدب ما لم تصنعه مدرسة واحدة أوربية في الأجيال الأخيرة .

لأن اختلاف المقاييس هنا هو اختلاف بين لغة ولغة ، وبين طبيعة وطبيعة ، وبين إقليم وإقليم ، وبين زمن وزمن . وبين موضوعات وموضوعات .

كانت مقاييس الأدب عندما هي المقاييس التي يقال فيها هذا أغزل بيت قاله العرب ، وهذا أهجى بيت قاله الانس والجن ، وهذا معنى لو تقدم صاحبه في الجاهلية يوماً واحداً لكان أشعر الشعراء . وكان الأديب العظيم معصوماً من النقد والملاحظة ، فإذا قد أو لوحظ عليه فأنما يجترئون عليه لأنه متأخر لا يستشهد بكلامه في العربية ، ولا يكون اجتراءهم عليه حرية فكر أو صدق نظر إلى القول والموضوع .

وكان البيت وحدة القصيدة ، وكانت القصيدة شتيلاً لا يشد البنية الحية ولا يقبل الاسم والعنوان ، إلا أن يذكر في صدرها أنها نظمت في تهنته زيد أو رثاء فلان .

وكانت الدواوين كراسات مملوءة بالقصائد من حرف الحمزة إلى حرف الياء بترققة في مراض الكلام ومعانيه الامتعودة في التفرقة بين باب المديح وباب الهجاء وباب الوصف وما شاكل ذلك من الأبواب .